شعر المديح عند ابن خاتمة الأنصاري: بين الاختلاف والمجاراة

The poem of praise to IbnKhatima Al-Ansari: Between the difference and the simulation

د. مداني زيقم

جامعة محمد الشريف مساعدية – سوق أهراس (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/05/12 **تاريخ القبول:** 2020/05/25

ملخص:

تهتم هذه الدراسة بقصيدة المديح عند الشاعر ابن خاتمة الأنصاري الذي عاش في آخر العصر الأندلسي (ت770هـ)، وقد كتب ابن خاتمة ديوانه بخط يده وقسمه بنفسه بحسب الأغراض، ووصل إلينا كاملا كما هو، ولعل اللافت في الديوان هو إعراض الشاعر في قسم المديح عن مدح الملوك والأمراء والوزراء، واتجه إلى مدح وشكر الله عزّ وجل والثناء عليه، وإلى مدح الرسول محمد (ﷺ)، ولم يتضمن مدح أي شخصية بعينها من عصره، رغم صلته الوطيدة بوزراء دولة بني الأحمر كأبي الحسن الجيّاب ولسان الدين بن الخطيب.

فما هي موضوعات مدائح ابن خاتمة وخصائصها؟ وهل تأثرت بموجة التصوف والزهد المنتشرة في تلك الأيام؟ وهل كانت للطبيعة الأندلسية حظوة في شعر المدح عنده؟ وما أسباب إعراضه عن مدح شخصية بعينها، رغم أن المدح في الشعر الأندلسي كان ذا شأن كبير، في ظل كثرة الأمراء والملوك والخلفاء؟

الكلمات المفتاحية: المديح؛ الشعر الأندلسي؛ ابن خاتمة الأنصاري؛ الطبيعة؛ التصوف المناجاة.

المنارة للاستشارات

Abstract:

This study is concerned with the poem of praise by the poet Ibn Khatima Al-Ansari who lived at the end of the Andalusian era (d. 770 AH).

Ibn Khatima wrote his collection of poems in his handwriting and divided it according to poetic subjects . Furthermore, he reached us completely as it is.

Perhaps the most remarkable is the reluctance of the poet in the praise section from praising the kings, princes and ministers, and he went to praise the Almighty God and praise him, and to the praise of the Prophet Muhammad, peace be upon him, and did not include praise of any particular character from his era, despite his close relationship with the ministers of the Bani Al-Ahmar state, as Abu Al-Hassan Al-Jayyab and Lssan Al-Din Bin Al-Khatib

The study examines the topics and characteristics of the praises of IbnKhatima. Was it influenced by the wave of Sufism and asceticism prevalent in his era? Was the poetry of praise influenced the poetry of praise with Andalusian nature? What are the reasons for his reluctance to praise a certain personality, although praise in Andalusian poetry was of great importance, because of the large number of kings and princes.

***keywords*:** Praise; Andalusian poetry; IbnKhatima Al-Ansari; Nature; Sufism; Prayer.

مقدمة:

ارتقى فنّ المدح في الشعر العربي مكانة مرموقة منذ القديم، رغم ارتباطه بالتكسّب المالي والتزلّف من أجل تحقيق الحظوة لدى الممدوح، وإن كانت هناك بعض الاستثناءات في تاريخ الشعر العربي القديم، من مثل مدح زهير بن أبي سلمى لهرم بن سنان والحارث بن عوف ومدح حسان بن ثابت للنبي (ﷺ).

وقد وضع الخطاب النقدي التراثي تصوراتٍ لمعايير جودة فن المدح فرأى أن «سبيل الشاعر – إذا مدح ملكا – أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح وأن يجعل

المنارة للاستشارات

معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية ويجتنب مع ذلك – التقصير والتجاوز والتطويل، فإن للملك سآمة وضجرا»[1]، وهناك من يعتبر التطويل في المدح هجاء، وأما حازم القرطاجني فيلخص موقفه النقدي من صناعة المدح بقوله: «يجب ألا يمدح رجل إلا بالأوصاف التي تليق به، ويجب أن تكون ألفاظ المديح ومعانيه جزلة مذهوبا بها مذهب الفخامة في المواضع التي يصلح بها ذلك، وأن يكون نظما متينا وأن تكون فيه مع ذلك عذوبة»[2].

وأما الرؤية المعاصرة للمدح فقد تميزت بموقف غير متجاوب معه، حتى قال أحد الدارسين: «وليس بين فنون الشعر العربي فن طرأ عليه من التبدل والانحطاط ما طرأ على فن المديح، وليس بين هذه الفنون ما ينفر منه ذوقنا الحديث كما ينفر من هذا الفن»[3] ويواصل نقده لهذا الفن وبشيء من الحدة قائلا: «ذلك أن معظم ما نظم فيه على طول الشعر العربي ذي التاريخ الطويل قد تلبس بالكذب والنفاق والمداهنة والملق، والاصطناع الأدائي والتكلف التعبيري، حتى صار هذا الكم الأكبر من المديح الجزاف هو السبة الأولى في جبين تراثنا العظيم»[4]، ويرى البعض أن لهذا الموقف ما يبرره، فالشعر العربي بكل أغراضه وفنونه، ينبغي أن يبقى معبّرا عن الفطرة السليمة للعربي، والجبلّة السامية للمسلم «والمديح الذي اهتز له النبي الكريم عليه الصلاة والسلام هو المديح الذي يصور الحقيقة لا يتجاوزها، فالإسلام يريد من الشعر أن يظل في إطار الحقيقة، والفن الذي يحمل الحقيقة في أذهان الناس مقدّر في ظل الإسلام»[5]، ففي الأثر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لحسّان: «هل قلت في أبي بكر مثلا ؟»قال: نعم، قال: «قل وأنا أسمع» قال:

وثَاني اثنينِ في الغَارِ المنِيفِ وقَد	طَافَ العَدُوُ بِهِ إذْ يَصْعَدَ الجَبَلا
وكانَ ردفَ رسُولِ اللهِ قَد عَلِموا	مِنَ البَرِّيَةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

فضحك رسول الله (ﷺ) حتى بدت نواجذه وقال: «صدقت يا حسان هو كما قلت»[6]. ويرى عمر بن الخطاب أن زهيرا صاحب شعر جيد لأنه «كان لا يعاضل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[7] فجعل الصدق في المدح معيارا لجودة شعره.

المنارة للاستشارات

وأما في الشعر الأندلسي فقد كان المدح ذا شأن، في ظل كثرة الأمراء والملوك والخلفاء، و«كانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة»[8]، لكن هناك من شعراء الأندلس من قصم ظهر هذه القاعدة، إذ لم يتضمن مديحه مدح شخصية ما، بل اتجه بمدحه اتجاها مغايرا تماما، فإذا «كان الدارس للمدائح الأندلسية يرى أن معظمها موجه إلى أمراء الأندلس وخلفائه وملوكه»[9]، فإنّ الدارس لمدائح ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي(*) يجد أنها موجهة جميعها للذي رأى أنه أحق بالمدح والثناء؛ الله عز وجل، وموجهة إلى الرسول محمد (ﷺ)، فكان القسم الأول من ديوانه موسوما بـ: (المدح والثناء وما ينتظم في سلكه من التنبيه على مواقع الجودة والنعماء) وبتوسّلِ مقاربةٍ وصفية لقضايا المديح عند ابن خاتمة وتحليلية لأسبابها والتأثيرات التي أوجدتها، نطرح التساؤلات الآتية: بمَ تميزت مدائح ابن خاتمة عن مدائح باقي الشعراء؟ وهل كانت للطبيعة الأندلسية حظوة في شعر المديح عنده؟ وهل تأثرت بموجة التصوف والزهد المنتشرة في تلك الأيام؟ وما أسباب إعراضه عن مدح شخصية بعينها؟

1- حضور الطبيعة الأندلسية:

اتخذ الشاعر الطبيعة الأندلسية سبيلا إلى التنبيه على آلاء الله تعالى ونعمائه. فتأمل وتدبر وتفكر، ودعا إلى الاعتبار، وكان استثماره في شعر الطبيعة لافتا، حتى شكل أهم ظاهرة في مدائحه، وكأنه يستحضر قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ○ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[10]، يقول ابن خاتمة وهو يرسم بالكلمات لوحة فنية غاية في الإطراف:

تسامَتْ لكَ الأكوان تُجْلَى عَرائِسًا فلو كنتَ ذا عَيْنين كنتَ الْمُناجيا
ونـادتْ ألا كُفءٌ يُكافي ومـا أرى لها مِنْكَ كُفؤًا إنْ خَطبتَ مُكافيا
وإلاّ فمـا بـالُ البَهـارِ مُحـدِّقًـا وقد كَحَلَتْ منهُ الظِّـلالُ مَآقـيا
وما بالُ صُدْغِ الآسِ أخضرَ ناصِعًا وما بالُ خَـدِّ الوردِ أحمـرَ قانـيا
وما لِثغـورِ الزَّهـرِ تُلفَى بَـواسمًا إذا ما عُيـونُ القَطْرِ ظَلْنَ بَواكيا

المنارة للاستشارات

ولمْ طـرَّزَ الـبرقُ الغَمـامَ وَوَشَّـحتْ سـواجمُه البَطْحـاءَ بيضًـا مَواضِـيا
ومـا لـلآلي الشُّـهبِ رُصِّـعَ نَظمُهـا فأمسَتْ صدورُ الأُفقِ عَنها حَواليا
ومـا لبطـاحِ الأرضِ أُبـدعَ رَقْمُهـا فراقـتْ أسـاريرًا ورقَّـتْ حَواشِـيا
ومـا لِحَمـامِ الأَيْـكِ تَشـدو تَرَنُّمًـا ومـا لِقُـدودِ القُضْـبِ تَهفـو تَعاطِيا
ولمْ قَـبَضَ النَّيْلَـوْفَرُ الكـفَّ خائِفًـا ولمْ بَسَـطَ السُّوْسـانُ يُمنـاهُ راجِيـا[11]

إنه يخاطب مسلما وقد تاه في دروب الغفلة والمعصية فعدل الشاعر عن أسلوب التأنيب القاسي إلى أسلوب العتاب الرقيق، بالتذكير بأنعم الله وعظمته المتجلية فيما خلق.

فيلتفت إلى الطبيعة الأندلسية، ويغترف منها صورا تشكل فيما بينها مشهدا حريّ بمن يراه ويتأمل فيه أن يسبّح الله الخالق، ويشكره على نعمه.

تحضر في هذا المشهد أزهار البهار والنيلوفر والسوسن، وبدا الشاعر محاورا للجمال المبثوث في الطبيعة من خلالها، وحضرت أيضا بطائح الأرض، وصدور الأفق، حمام الأيك وقدود القضب، وشدو الطير، في محاولة فنية من الشاعر لتنويع أشكال التأثير في صناعة هذه اللحظات، فكان السمع والبصر والإحساس، تتظافر فيما بينها لتبيّن جزءا يسيرا من عظمة الخالق سبحانه. وبعد، هل خُلق كلّ هذا سدى!؟ لا وربك ما هيا ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[12].

لقد صاغ لنا الشاعر في هذا الفضاء الدلالي السؤال المهم في نظره: لِمَ خلق الله كل هذا؟

أتحسَـبُ هـاتي كُلَّهـا خُلِقَـتْ سُـدى لغـير اعتبـارٍ؟ لا وَرَبِّـكَ ماهِيـا!
وأنَّ قُصـاراها لِلَهْـوٍ ولـذَّةٍ ؟ لقـد أخطـأ التَّقـديرُ مِنْـكَ الْمَرامِيـا
فَمـا خُطبـاءُ العُـرْبِ أفصـحُ واعِظًـا مِـنَ الطَّيرِ يَشْدو لَوْ فَهمتَ الْمَعانِيا
ولا صـفَحاتُ الهِنْـدِ أردعُ زاجِـرًا مِـنَ البَـرْقِ يَبْدُو لَـوْ علمتَ النَّواهِيا
ولا لُطَـفُ الإحْسـانِ أحسـن مَوقِعًـا مِنَ النَّورِ يَذْكو لو عرفْتَ الأيادِيا[13]

المنارة للاستشارات

يجيب عن هذا السؤال في قصيدة أخرى جرت مجرى وصف الطبيعة الأندلسية، إذ ينظر الشاعر حوله فيرى الأرض قد ازّيّنت وأنبتت من كل زوج بهيج، وخلع عليها الربيع رداءه الأجمل بألوانه وبدائعه وعطره وأريحه وجداوله ومذانبه وسجع أطياره:

الأرضُ بـــينَ مُـــدَبَّجٍ ومُحَلَّـــلِ والـــرَّوضُ بـــينَ مُتَـــوَّجٍ ومُكَلَّـــلِ
والزَّهـــرُ بـــينَ مـــورَّدٍ ومُـــوَرَّسِ والنَّشـــرُ بـــينَ مُمَسَّـــكٍ ومُصَـــنْدَلِ
والمـاءُ قـد صـقَلَ النَّسـيمُ فِرَنْـدَهُ فتوشَّـحتْ منـهُ الريـاضُ بِمِنْصـلِ
لُوِيَـتْ مَذانِبُـهُ علـى أدواحِهـا فـاختلْنَ بـينَ مُنَطَّـقٍ ومُخَلْخَـلِ
مـا ذاكَ سـجعُ نسـيبِهِ في ظِلِّهـا لكنَّـهُ وَسـواسُ هاتيـكَ الْحُلِـي
أهـــلاً بأيَّـــامِ الرَّبيـــعِ وطِيبِهـــا أنْـــسِ الخليـــعِ ونُزهـــةِ الْمُتَبتِّـــلِ
زَمَـــنٌ أرَقُّ مِـــنَ الـــوِداد شَمـــائلاً وألَذُّ مِـنْ عصْرِ الشبابِ الأوَّلِ[14]

وتمتدّ القصيدة على طول تسعة وعشرين بيتا على النّهج نفسه، سياحةً بين ملكوت الله، يمتّع الشاعر بصره ويشنّف أذنه بكلّ هذا الجمال ذي الأضرب المتنوّعة المتناسقة «والشّعر الأندلسي يقدّم لنا لوحاتٍ تنمُّ عن امتزاج الشّاعر بالطّبيعة وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتّى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه»[15]، فما بالك لو كانت الطبيعة طريقا إلى شكر الله وتعظيمه:

لُطْفٌ مِن الإحْسَانِ أعْجَزَتِ الورَى أَوْصافُها، سُبحَانَ مُبدِعِها العَلِيِّ!

إنّه بيت القصيد الّذي اختتم به الشّاعر، لأنّ فيه العبرة والعظة، من بدائع خلق الله. ودلائل استحقاقه العبودية والشّكر والذّكر والطّاعة ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾[16] و﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾[17]، وفي قصيدته هذه يتأسّى الشاعر بالأسلوب القرآني في الوعظ والتّنبيه وأكْرم به من أسلوب لا ينفّر ولا يعسّر فالله دعا في القرآن الكريم إلى «النّظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثمّ إلي العالم السّفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهيّأها بالبسط لما يراد منها وتثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كلّ صنف حسن من أصناف النّبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته

المنارة للاستشارات

وأنّ ذلك تبصرة إذا تأمّلها العبد المنيب وتبصّر بها، تذكّر ما دلّت عليه مما أخبرت به الرّسل من التوحيد والمعاد، فالنّاظر فيها يتبصّر أولا، ثم يتذكّر ثانيا، وأنّ هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه»[18].

ويمضي الشّاعر وفيّا لمنهجه هذا في الاستعانة بالطبيعة وما حوته تدليلا على قدرة الله في قصيدته الأخرى التي مطلعها:

شَقَّتْ على الأرضِ السَّماءُ جُيوبَهَا   فالْمَحْ سَناها أو تَنَسَّمْ طيبَها[19]

إذ يصف الشّاعر في قصيدته الأرض وقد ارتوت من ماء السماء، وتضوّعت أريجا وتلوّنت خمائلها بالأزهار والورود، مسترسلا في وصف ما تسمع الأذن من أغاريد الأطيار وترانيمها، وما تراه العين من مشاهد الحسن وملامحه، إلى أن يصل إلى المقصد والغاية، وهو الدعوة إلى التّأمل والتّدبّر والشكر، لكنْ .. هل يمكن أن يحاط بالنّعم؟

نِعَمٌ يضيقُ الوَصْفُ عن إحْصائِها   فَلَّ الخطيبُ بها لِسانَ الأوْجَسِ

ف : سُبْحانَ من صَدَع الجميعُ بِحَمْدِهِ   وبِشُكـره من ناطـقٍ أو أخـرسِ
وامتدَّتِ الأطلالُ ساجـدَةً لـه   بجِـــبالِها من قائِـمٍ أوْ أقْعَـسِ
فإذا تَراجَعَــتِ الطيـورُ وزايلتْ   أغْصانَها بانَ المطيعُ من المُـسـي
فيقولُ ذا: سَكِرتْ لنغمةِ مُنْشِدٍ   ويَقولُ ذا:سَجَدت لِذِكْرٍ مُقَدِّسِ
كُلٌ يفُــوهُ بِذَوْقِـهِ والحــقُّ لا   يَخْفى عَلى نَظَرِ اللَّبيبِ الأكْيَسِ

استطاع الشاعر أن يطوّع شعر الطبيعة لغرضه؛ هاهي الأطلال تسجد شاكرة لله سبحانه بجبالها القائمة والقعساء، بل إن الجميع يصدع بحمده، الحيّ والجامد، الناطق والأخرس ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[20]، وشتان بين من يسكر لنغمات منشد، ومن يسجد لذِكْر مقدّس.

لقد وفّر شعر الطبيعة لابن خاتمة فضاءً نصيا يعبق طهرا، يبث من خلاله مشاعر العبودية لله، وينشد ترانيم الشكر والحمد له، فتتجلى تلك العلاقة الوثيقة بينه وبين الخالق.

المنارة للاستشارات

2– مدح الرسول:

سخَّر الشاعر فضاءاتٍ واسعةً من قصائد قسم المديح لمدح الرسول محمد عليه صلاة الله وسلامه، فهو –نظره– أحق بالمدح، ولعل هذا ما جعل الشاعر يدير ظهره لمدح شخصية أخرى(**)، وحاجة الخلائق للنبي عليه الصلاة والسلام عظيمة «أما حاجتهم إليه في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم، وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع هو لهم وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة»[21]، لكل هذا عدَّ الشاعر بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام أنفسَ نعمة وأعظمَ هبة:

كَفَـى بِخَـيْرِ البَرايـا نِعمـةً نَفُسَـتْ ... فأعجزَ الشكرُ عنْها كُلَّ ذِي نَفَسِ!
كفـى بِبَعْثِـكَ خَيْـرَ الرُّسْـلِ مَوْهِبَـةً ... عمَّـتْ كِـلا الثَّقَلَـيْنِ: الجِـنَّ والأنـسِ
رَسُـولُ يُمْـنٍ حَبانـا كُـلَّ مُلْـتَمسٍ ... ونُـورُ هَـدْيٍ كفانـا كُـلَّ مُلْتَـبَسِ
حَمَـى حِمـى الحـقِّ إرْغامـاً لِمُبْطِلِـهِ ... فالشِّـرْكُ في مـأْتَمٍ والـدِّينُ في عُـرُسِ
نُـورٌ لِمُقتـبِسٍ، حِـرزٌ لِمُحـترِسً، ... يُمْـنٌ لِمُنـتَكِسٍ، نُعْمـى لِمُبتـئِسِ
أعظِـمْ بِهِ من هُـدىً لِلْمُقتفِين، نَـدىً ... لِلْمُعْتَفـين، رَدىً لِلْمُلْحِـدِ الـنّكِسِ
آياتُ جُودٍ تَجَلَّت في الوُجودِ (ضُحًى) ... ظَلَّتْ لَها فِئةُ التَّضْليل في (عَبسِ)[22]

إنه المدح الذي نقرأه ونحن لا نشعر بالتكلّف ولا نحسّ بالملل، لا يُضجرك تطويل ولا يُسئمك تفصيل. يزدحم هذا النص بمجموعة من الدلالات الموحية بتقدير كبير لمكانة الرسول الأكرم، فهو الخير والنعمة والهبة، وهو اليُمن والنور والهدى وهو الذي وقى وبصّر وحمى وطهّر، محا رسم الإفك، وأقام الحق «ولو جمعت كل أوصافه ونظمتها إلى بعض واعتبرتها بأسرارها العلمية لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه»[23]، فحقٌّ للشاعر– والحال هكذا– أن يعلن شوقه إلى حبيبه، ويبسط لنا تشوّقه إلى (طيبة) مدينة رسول الله:

المنارة للاستشارات

بـل هَـلْ يُبَلِّغُـني وَخْـد المطِـيْ عَلـى شَـحْطِ المـزارِ إلى رَبْـعٍ بـذي سَـلَمِ
لِمَعْهـدٍ طالَمـا حَـلَّ القُلـوبُ بـهِ مُخَيِّمـينَ وبـانُوا عَـنْ جُسـومِهِم
لِعُمـدةِ الـدِّينِ والـدُّنْيا وقُطبِهمـا ومُنْتهـى الشَّـرَفِ الأصـليِّ والكَـرمِ
لأفضـلِ النَّـاسِ مـن حـافٍ لِمُنْتَعِـل وأكـرمِ الرُّسـلِ مـن بـادٍ لِمُحْتَـتِمِ
لأحمـدٍ سَـيِّدِ الإرسـال قاطِبـةً مُحَمَّـدٍ خـيرِ خَلْـقِ اللهِ كُلِّهـمِ[24]

ثم يعمد الشاعر مسترسلا في تصور رحلة طويلة إلى طيبة، رحلة يحوطها الحب والشوق، ويلفها الوجد والجوى:

يا حاديَ العيس نَحْوَ القومِ مُرتَهَناً يرمـي بـهِ الشَّـوقُ مـن غَـوْرٍ إلى تَهَـمِ
رفقـاً بنـا في بقايـا أنفُسٍ خَفِيَـتْ عَـنِ المنايـا فلـم تَمْتَـز مـن العَـدمِ
لأُلحِفَ الجسمَ ثوبَ السُّقْمِ مُمْتَهناً وأذرفَ العَيْنَ صوبَ الأدْمُعِ السُّجمِ
وأشرِبَ الوجدَ قَلبي والجوى كَبدي والسُّهدَ جَفْني وأنواعَ الشجونِ دَمي!
إن لم أحُـطَّ ركـابي في أبـرِّ ثَـرىً حـتَّى أعفِّـر فيـهِ وَجْنَـتي وفَمـي
ذُلاً وخَوفـاً وإشْـفاقاً ومَنْدَمـةً عَلى مساوئَ قد زلَّتْ بها قَدمي[25]

وفي سبيل معهد رسول الله، يُتحمّل التعب والنّصب، والمرض والسقم ويُشرَبَ القلبُ الوجدَ، والكبدُ الجوى، والجفنُ السَّهر والشهد، بل الدموع الشجون «فمن ذا من شعراء عالم الإسلام كله يوشك أن يبلغ مدينة نبيه وقائده ومعلمه، ثم هو لا يكاد يذوب وجدا وتذوب معه في نار الشعر كلماته وأبياته وقوافيه؟»[26].ثم يبعث شاعرنا بتحيته ثنايا نسيم يسري ويمر بجانب طيبة، ويسأل من فيها أن ينسموا ذلك النسيم، وأن يردوا عليه بسلام غير منصرم ولا منقطع:

يـا طَيْبَـةَ الطَّيِّبـينَ، اللهَ أنشُـدكُم أما سَرَتْ نسمةٌ من جانب (العَلَمِ)
عَسـاكُم أنْ تُوالُوهـا سَـلامُكُم حـتَّى يَـينَ الرِّضـا مِنْهـا لِمُنْتَسِـمِ
وإنْ تَعُـدْكُم فحيُّوهـا فَعَوْدَتُهـا مِـنِّي بـردِّ سـلامٍ غَـيْرِ مُنْصَـرِمِ[27]

وتطفح نصوص مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، بهذه العاطفة الصادقة ذلك أن ليس في هذا المدح استجداء ولا تكلّف ولا طلب حظوة ولا تكسب، ويعرف زكي مبارك

المنارة للاستشارات

المدائح النبوية بأنها فن: «من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»[28]، إنها نصوص تنفتح على الصدق والإيمان، فتتعانق في مدح خير البرية قيم الإيمان والحب لتشكل لنا عوالم الطهر والسموّ الروحي:

من سَفْحِ دَمعٍ بِسَفح الخدِّ مطَّرِدٍ وقَدْحِ وَجْدٍ بطيِّ الصَّدرِ منعَكِسِ
ونَهْبِ شوقِ أباحَ السُّقم مَنْهبتي فالجِسْمُ في تَعبٍ، والقَلْبُ في تَعَسِ
فَهَلْ سَبيلٌ تؤدِّي حِلْفَ قاصِيةٍ إلى مَقَرِّ الهُدى من رَوْضةِ القُدُسِ
إلى البشيرِ النَّذيرِ الْمُجْتَبى كَرَماً إلى السِّراج الْمُنيرِ الأشرفِ النُّدُسِ
مَنْ لي بِلَثْمِ ضَريح لَثْمُهُ سَببٌ لِكُلِّ مُنقطعٍ، باللهِ مؤتَنِسِ
روضٌ كَساهُ الرِّضى من طِيْبِه خِلَعًا فَلَيْسَ يَعْرَى مُحِبٌّ مِنْ هَواهُ كُسِي[29]

إنه الدّمع المسفوح، والشّوق المنهوب، والجسم المعلول، جوىً وحبّا ولوعة وأسىً، فهل إلى هناك من سبيل إلى مقام المجتبى المختار، البشير النذير، السراج المنير إلى الروضة المعطار: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[30] :

ياليتَ شِعْري وأيَّامي تُثَبِّطني ومَنْ سَقَتْهُ كؤوسُ العَجْزِ لم يَكِسِ
هل أكحَلُ الجفنَ من تُرْبٍ بِهِ عَبقٌ وأرشُفُ الثَّغرَ من أضلالِهِ اللَّعِسِ
وأُبْلِغُ الخَدَّ من تَعفيرِهِ وَطَراً شَوقاً لِمَوطئ نَعْلٍ طاهرٍ قُدُسي

ويعلو صوت الرجاء والأمل في وجه زمن العجز، هل تكتحل الأجفان برؤية المقام الكريم؟ فأرشف ثغر تربته! وأقضي وطري من ذلك الثرى الطاهر فأضع خدي عليه .. فإنه كان موطئ قدمين شريفتين!!

وهكذا بدا لنا الشاعر في مدحه للنبي عليه الصلاة والسلام في صورة المحب الذي يأسره الشوق، العارف لنعمة بعثته قدرها، المدرك لأثرها، فتواكبَ الأثر الديني مع التقديم الجمالي في تناغم لطيف، «وقد يحدث أن يتواءم الموقف الجمالي مع الموقف الديني، ولا يجد الفنان أو الشاعر أية صعوبة في ذلك، وذلك في مرحلة الإيمان الكامل – مصداقا لقول المصطفى: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)»[31].

المنارة للاستشارات

3– حضور الرؤية الصوفية:

إذا كان الشاعر بدا –كما رأينا – في مدحه للنبي الكريم في صورة المحب الذي يأسره الشوق، فإننا سنرى في الخطوة الآتية كيف عبر الشاعر عن حبه لله ولرسوله بطريقة أخرى تميزت فضاءاتها النصية بوجدانية مشرقةٍ بسمو الروح، ونقاء النفس، وطهارة الباطن، يبرز كل هذا في نصوص يبدو الشاعر فيها متأثرا بأحوال المتصوفة فراح ينسج على منوالهم ويقتفي أثرهم.

والشاعر في هذا يواكب موجة من التصوف ظهرت في مقابل حياة البذخ والإسراف في اللهو التي عرفها الأندلسيون، إذ «كان مسلك التطرف عند الأندلسيين في الإقبال على منهل اللذات، الذي ازدحموا لورده، دافعا إلى طرف آخر بعيد كل البعد عن المتعة الحسية وهي المتعة الروحية التي كان ثمرتها ظهور النسك ثم التصوف[32]، وانعكست هذه الحياة الروحية ذات الأثر الكبير على الشعر الأندلسي، فغدا صدى خفقاتها، ولسان حالها «فللصوفية أدب غزير، تخالف خصائصه خصائص الأدب الآخر، ومن خصائصه السمو الروحي، والمعاني النفسية العميقة، والخضوع التام لإرادة الله القوية، وبعد الخيال، وغموض المعاني الرمزية»[33]، وقد عرفت "ألمرية" مدينة ابن خاتمة، مجموعة من المتصوفة من أشهرهم أبو عبيد الله الغزّال على عهد الموحدين[34]، ورأينا أنّ من بين شيوخ ابن خاتمة زهاد ومتصوفة، فانطبعت مسحة شعرية صوفية في بعض قصائده. وفي إحداها يتحدث الشاعر عن الحب العظيم الذي يتجاوز كلّ حب دنيوي ويعلن:

شَـربتُ كـأسَ الهَـوى وَحـدي مُعَتَّقـةً ... والعاشـقونَ – جَميعـاً– فَضْـلَها شَـرِبوا
فَمَـنْ يَكُـنْ عاشِـقاً مِثلـي يَحِـقُّ لـهُ ... ألاَّ يُبـالي أقـامَ الحَـيُّ أمْ ذَهبـوا
في وَجْـهِ مَـنْ هَـامَ قَلبي فيـهِ لي شُـغُلٌ ... عـنْ كُـلِّ شُغلٍ، فـلا يُـزْري بـكَ الرَّغَـبُ
وجـهٌ إذا انتَسـبَتْ كُـلُّ الوُجـوهِ إلى ... حُسـنٍ فَمـا لِسِـواهُ الحُسْـنُ ينتسـبُ
يـا لهـفَ نَفْسـي علـى خِـلٍّ أُفاوِضـهُ ... حَديثَ لَيْلَى فَيُصفي لي كَما يجبُ[35]

لن يجد القارئ المطّلع على شيء من أساليب الشعر الصوفي صعوبة في التعرف على الجو الصوفي الذي يسبح فيه هذا النص، إذ اتخذ الشاعر رموزا صوفية للإبانة عن حبه

المنارة للاستشارات

وعشقه، فيقول (شربت)، ومن جملة ما يجري في كلام الصوفية الذوق والشرب: «ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوف .. وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الارتواء، إن صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الارتواء»[36].

ومن صار له الشراب غذاءً لم يصبر عنه ولم يبق بدونه، وأنشد الصوفية:

عجبت لمن يقول ذكرت ربي فهل أنسى فأذكر ما نسيت

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت[37]

إنه الحب الذي لا يبالي صاحبه برحيل الحي أو مكوثه مثلما يبالي الآخرون، فهو خارج أبعاد المكان والزمان، حبٌّ يخترق الحجب ويهتك الستر.

ويظهر تبصّر الشاعر بأحوال الصوفية، من خلال توظيفه اللافت لرموز التي دُرِجَ استعمالها في الأدب الصوفي، كقوله[38] عن السر العظيم الذي يريد أن يبثه لخلٍّ صفيّ:

أبثُّـه سِـرَّ حُسْـنٍ جـلَّ مُضـمَرُهُ عـنْ أن تُطالعـهُ الأقـلامُ والكُتُـبُ

سِرٌّ من الْحُسْنِ لو يُجلَى سَناهُ عَلى أعْمَى لأبصرَ ما قَدْ وارَتِ الْحُجُب

أو قيـلَ في أُذُنِ صـمَّاءَ أسْمَعَهـا أو رامَـهُ أخـرسٌ دانـتْ لـهُ الْخُطَـبُ

أو خَـطَّ في وَجْنَـتَيْ مَيْـتٍ لأنشـرَه وقـامَ للحـينِ في أثوابِـهِ يَثِـبُ[39]

يطلق لفظ السر عند القوم –كما يقول القشيري – على ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه وتعالى في الأحوال، وعندهم السرّ ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب، فهو السر ذو المضمر الجليل، الذي يرتدّ به الأعمى بصيرا، والأصم سميعا، تدين الخطب العصماء للأخرس! بل إنه يحيي الموتى!

ومهم أن نشير هنا إلى أن الشعر الصوفي «تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق، وهو شعر مؤوّل، لا يُقصد ظاهره، وإنما له محامل يحمل عليها وتليقبه»[40]، وهذا ما ينبغي أن يستحضره معنا القارئ في محاولتنا للتسلل إلى ما وراء تلك الأستار والحجب يقول في القصيدة نفسها:

المنارة للاستشارات

في كُلِّ حُسنٍ له مَعْنىً يُشاهِدُه قَلْبٌ خَلا عنهُ إفكٌ وامَّحَتْ رِيَبُ
لا يَطمعُ الطَّرْفُ أن يَحْظَى بمِلْمَحَةٍ مِــن حُســنهِ ولِغَــيْرِ عِنْــدهُ أربُ

إذاً تشكّل لفظة "يشاهده" دلالة تتفتح على فضاء الخطاب الصوفي، ويراد بلفظ الشاهد عند أهل التصوف ما يكون حاضرَ قلب الإنسان، وهو ما كان الغالب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائبا عنه، فكل ما يستولي ذكره على قلب صاحبه فهو يشاهده. ويمضي الشاعر في إضفاء أجواء صوفية على نصوصه في قسم المديح فيقول في مطلع قصيدة أخرى:

مَجالُ لُطفِكَ بينَ النَّفْسِ والنَّفَسِ وسِرُّ هَدْيِكَ بينَ النَّارِ والقَبَسِ[41]

فإذا توقفنا عند كلمتي النفْس والنفَس لأمكننا تجاوز المعنى السطحي لهما إلى معنى آخر يمكن تأويله تأويلا رمزيا صوفيا، وهذا الجانب من التحليل جعل أحد الباحثين يقول إنّ «الشعر الصوفي أو الإلهي الجامح بخياله والغامض بمعانيه، يتخذ من الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه، وقلّ أن يفهمها إلا أصحابه أو من يؤولونه»[42].

فالنفس عندهم ما كان معلولا من أوصاف العبد، ومذموما من أخلاقه وأفعاله والنفَس هو ترويح القلوب بلطائف الغيوب، فكأن الشاعر أراد أن يقول إن العبد يصبح في مجال لطف الله بين اعتراء نقص وكدر، ومناشدة كمال وصفاء.

وفي مناسبة أخرى، وبينما الشاعر يدير الحديث على الخمرة وأدواتها وأوصافها على طريقة شعراء الصوفية، يذكر(روح الروح)، و(سرّ السرّ):

أدِرْ كـؤوسَ الرِّضـا نـاراً عَلـى عَلَـم لا خَيْـــرَ في لَـــذَّةٍ بتَّـــا لِمُكتَـــتِمِ
ولْتَجْلُهــا بنــتَ دَنٍّ عُمْرُهــا عُمُــري تَسْتَدرِجُ العَقلَ فِعلَ الشَّيبِ باللَّمَمِ
مَشْــمُولَةً نَســجَتْها للشَّــمالِ يَــدٌ وألْطَفتهــا أكُــفُّ اللُّطـفِ في القِـدَمِ
فَمـا لَهـا غـيرَ رُوحِ الـرُّوحِ مـن قَـدَحٍ ولا لَهـا غَيْـرُ سِرَّ السِّـر مِنْ قَـدمِ[43]

توفر هده الأبيات قدرا كبيرا من أجواء الصوفية التي تتداخل فيها الإحالات بعيدة المرامي التي لا تكاد تلوح إلا لصاحبها، يقول القشيري: «وقالوا: السر ما لك عليه إشراف

المنارة للاستشارات

وسرّ السرّ ما لا إطلاع عليه لغير الحق، وعند القوم على موجب مواصفاتهم، ومقتضى أصولهم نجد أن السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب»[44].

وقد اتخذ الشاعر هذا الفضاء النصي ذي المسحة الصوفية مقدمة لقصيدته، ليوفر للقارئ الحيّز النفسي ذي التوتر العالي، الذي يمكّنه من التجاوب مع غرضه الأصلي وهو الثناء على الله ومدح الرسول عليه السلام.

ويستثمر شاعرنا الخطاب الصوفي بطريقة أخرى، حينما يسمّط قصيدة لأحد مشايخ الصوفية وهو ابن الخيمي(***) ومنها:

منكَ التجلّي ومنّا السّترُ والحجُبُ وكل نُعمى فَمِن عُلياكَ تُرتَقبُ
وأنتَ أنتَ الّذي أبْغي وأطْلِبُ يا مَطْلباً ليسَ لي في غَيرِهِ آربُ
إليكَ آلَ التّقصّي وانْتَهى الطّلَبُ

يا حاضراً سِرُّهُ عِنْدي، وفي، ومَعي أغَيْرَ ذِكْرِكَ أُمْلي أمْ سِواهُ أعِي
تاللهِ ما راقَ عَيْني حُسْنُ مُرتَبَعِ ولا طَمَحتُ لِمَرْأى أو لِمُسْتَمَعِ
إلاّ لمعنىً إلى عُلياكَ ينتَسِبُ

إلى أن يقول:

هَلْ للْمُحبِّ سرورٌ بعدَ تَرْحَتِهِ آهٍ لوجْدٍ كَوى صَدري بِلَفحتِه
جِسْمٌ تَفانَى وقَلْبٌ رَهْنُ قَرْحَتِهِ ولَسْتُ أعجَبُ من حُبّي وصِحَّتِه
من صِحَّتي إنمَّا سُقْمي هو العَجَبُ!

للهِ لمحةُ حُسنٍ صَحَّ مُذْنَفُها سَرَتْ بِقلبي فَتَصريفي تَصَرُّفها
قَدْ مِتُّ عَنها ولكنْ لَستُ أُنْصفُها والهَفَ نفسيَ لو يُجْدي تَلَهُّفها
غَوْثاً، وواحَرَبي لو يَنْفَعُ (الحرَبُ)

ياليْتَ شِعريْ وفي دَهْري مُخالَفةٌ هَلْ مِنْهُم لِيَ قُرْبى أو مُعاطَفةٌ
أو رحمةٌ أو حُنوٌّ أو مُلاطفةٌ يَمضي الزَّمانُ وأشواقي مُضاعَفةٌ
يا لَلرجالِ ولا وَصْلٌ ولا سَبَبُ![45]

المنارة للاستشارات

إنها قصيدة تطفح وجدانية ورقة، اتخذت التصوف لبوسا، ولكنْ بعيدا عن تلك الرموز الشاقة، وتشعر وأنت تقرأها أنها كيان شعري واحد لشاعر واحد، إذ تمكن ابن خاتمة من مجاراة ابن الخيمي في بسط مشاعر المحبة الإلهية في نسيج شعري بدا على ضرب من التناسق والانسجام، مما يدل على أنّ ابن خاتمة كان حقا بصيرا بأحوال الصوفية وأساليبهم.

وقد واكب الشاعر معاني القصيدة الأصلية التي أفادت من تراث الشعر العذري «كأن التعبير الصوفي يتوسل ... بأسلوب الحب العذري، ويتخذ من لغته المفعمة بالطهارة ومن موضوعاته التي تبرز معاناة العاشق سبيلا إلى التعبير عن الحب الإلهي»[46].

ويظهر تأثّر الشاعر بأعلام التصوف في تمجيده الله سبحانه في قصيدة[47] عارض فيها قصيدة لأبي مدين شعيب الأندلسي[****]، مما يؤكد صلته الروحية والفنية بشعراء التصوف.

4– المناجاة والدعاء:

تميزت مدائح ابن خاتمة بحضور لافت لشعر المناجاة والتضرّع والدعاء، ولا غرو في ذلك، فكما أنّ الشاعر يثني على الله تبارك وتعالى، ويتدبر آياته، ويشكر نعمه، فحري به أيضا أن يسأل المغفرة والإقالة والتوبة عنه، في جوّ من التذلل والانكسار، فينقطع إلى مناجاة شعرية مع الخالق سبحانه.

وقد أفرد الشاعر قصيدة كاملة لتكون قصيدة الدعاء والاستغاثة، وإظهار العبودية:

يا من يُغيثُ الوَرى مِنْ بعدِ ما قَنِطُوا ... ارحَمْ عِبادًا أكفَّ الفَقْرِ قد بَسَطوا
عَـوَّدْتَهم بَسْـطَ أرزاقٍ بـلا سَـببٍ ... سـوى جميـلِ رجـاءٍ نحـوهُ انْبَسـطوا
وعُـدْتَ بالفضـلِ في وِردٍ وفي صَـدَرٍ ... بالجُودِ إن أقْسَطوا والحِلْمِ إنْ قَسَطوا
فَضـائلُ ارتَبطـتْ شُـمُّ الأُنـوفِ لَهـا ... وكُـلُّ صَـعْبٍ لِقَيـدِ الجُـودِ يَـرْتَبطُ
يـا مـن تَعَرَّفـت بـالْمَعْروفِ فاعتَرَفَـتْ ... بِجَـمِّ أنعامـهِ الأطـرافُ والوسَـطُ
وعالِمـاً بخفيَّـاتِ الأُمـورِ فَـلا ... وَهْـمٌ يجـوزُ عَليـه، لا ولا غَلَـطُ[48]

هاهو يبتدئ بتمجيد الله تعالى، فهو المغيث، وهو الرحيم وهو الرزاق وهو ذو الفضل، وهو الجواد، وهو الحليم، وهو ذي النعم التي لا يحاط بها، وكأن الشاعر بدأ بهذا

المنارة للاستشارات

كي يطرق باب الإقرار والاعتراف، فيُفتح له، فيدعو بعد ذلك، وقد أبان صدقه، فيندفع بعده طالبا المغفرة راجيا العفو والقبول:

عَبْـدٌ فقـيرٌ ببـاب الجـودِ مُنكسِـرٌ ... مـن شـأنهِ أن يُـوافي حِـين يَنضَـغطُ
مَهْمـا أتـى لِيَمُـدَّ الكـفَّ أخْجَلَـهُ ... قَبـائحٌ وخَطايـا أمْرُهـا فُـرُطُ
يا واسعاً ضاقَ خَطوُ الخَلْقِ عن نِعَمٍ ... منـهُ إذا خَطبـوا في وَصْـفِها خَبَطُـوا
وناشِـراً بيـدِ الإجْمـالِ رَحْمَتَـهُ ... فلـيسَ يَلحـقُ منـهُ مُسْـرفاً قَـنَطُ
ارحَمْ عباداً بضَنْكِ العَيْش قد قَنِعُوا ... فأيْنَما سَقَطوا بينَ الورَى لَقَطوا[49]

يُظهر الشاعر الخنوع والعبودية، فيقول (عبدٌ)، والعبد لا يتصرف إلا بإذن سيده «وتحقيق العبودية يكون من كلّ الوجوه .. صغيرا وكبيرا، حيا وميتا، مطيعا وعاصيا، معافا ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح»[50]، لكن تلك الخطايا تخجله من أن يرفع كفيه بالدعاء: فارحم يا رب، وأقلِ العثرة، واغفر الزلة، ثم يختم القصيدة ببيان مطلق العبودية:

نحنُ العَبيدُ وأنتَ المِلْكُ ليسَ سِوى ... وكلُّ شَيءٍ يُرَجَّى بَعْدَ ذا شَطَطُ!

ليستحيل النص بمجاميعه إلى فضاء شعري يعبق إيمانا، ويتضوع حبا لله والطمع في رحمته، امتطى صاحبه – ليصل إلى الغاية – مطيّةَ المناجاة والاستغاثة والانكسار.

ويشكو الشاعر في مناسبة أخرى ثِقل الذنوب التي أعيت كاهله ونأى عن حملها :

إليكَ ياربّ شكوَى مُبْعَدٍ قَعدتْ ... بـهِ الخَطايـا فلَـمْ يَـنْهَضْ لِمُلْـتَمِسِ
غَرَّتْـهُ غُـرَّةُ دُنيـا بالصِّـبا فصَـبا ... وأنَّسَـتْهُ بتَهـوينِ الهَـوى فَنَسِـي
يـا ربّ رُحمـاكَ في تَبْليـغِ مأربـهِ ... فَلُطفكَ اللُّطْفُ في تيسيرِ كل عَسِي
أنـا الفقـير فَعُدْ بالفَضْلِ يـا أمَلي ... فقَدْ دَعَوْتُكَ عن عُدْم وعَنْ فَلَسِ[51]

ويعلن التوبة شاكيا خطايا أقعدته، ودنيا غرّته، وهوى نفس أنساه ذكر ربه، مرتحلا بنا في دروب الدعاء والأمل في الاستجابة.

شكّلت فضاءات المناجاة والدعاء ملمحًا مهمًا في مدائح ابن خاتمة، إذ أبرزت لنا المدارات الرئيسة لها المتمثلة في: الحب والخشية، والخوف والرجاء، فعبّر الشاعر عن الحب

المنارة للاستشارات

والرجاء بالثناء والحمد، وعبر عن الخشية والخوف بالدعاء والتضرع، ولعل هذا يتجلى في القصيدة الواحدة حينما يقول في افتتاح إحداها مثنيا على الله جلّ في علاه:

جَمالُ لُطفِكَ بينَ النَّفْسِ والنَّفَسِ وسِرُّ هَدْيِكَ بينَ النَّارِ والقَبَسِ
وسَيْبُ جُودِكَ قَدْ عَمَّ الوجُودَ لُهًى ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ جَوْدًا ومُنْبَجِسِ
فَما عَسى أن يُطيلَ القولَ ذو لَسَنٍ أو ما عَسى أنْ يُطيلَ الصَّمْتَ ذو خَرَسِ
بَهَرتَ نُوراً فَلا سِتْرٌ لِمُلْتفِتٍ وفِضْتَ جوداً فلا عُذْرٌ لِمُلْتَمِسِ
وعُدتَ بالحِلْمِ والإجمالِ فاتَّضَحَتْ حُلى جَمالِكَ مِثْلَ الصُّبْحِ في الغَلَسِ
فالكُلُّ مُحتفِلٌ في الحمدِ مُبتهلٌ سُفْلٌ كعُلوٍ ومَرؤوسٌ كَمُرْتَئِسِ
وأيّما نِعمةٍ مِنْ قبلُ نَشْكُرها والشُّكرُ مِنْها وشُكرُ الشُّكرِ وَلْتَقِسِ[52]

ويجول الشاعر في دروب نعم الله وآلائه، فيشكرها ويحمدها، ويثني عليه بما عرفه من جود ونور وحِلم وجمال فـ «غاية الخلق والأمر أن يُذكر ويُشكر فلا يُكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكرا لمن شكره فذكره سبب لذكره وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد للجوارح طاعة وخدمة»[53]، ويضفي ابن خاتمة على النص أجواء احتفالية ترانيمها الحمد وأناشيدها الشكر، والشكر على النعمة يحتاج إلى الشكر!.

وفي آخر القصيدة ينقلنا الشاعر إلى أجواء الضراعة والابتهال والدعاء وطلب العفو:

إليك ياربّ شكوى مبعد قعدتْ به الخطايا فلم ينهض لملتمس

فتتجلى لنا التوظيفات الدلالية التي تتقلّب بين حمد الله وطلب مغفرته، وشكر النعم والرجاء في عفوه، وحبّه والخشية منه، والاحتفال والابتهال.

5– سبب إعراض الشاعر عن مدح شخصية أخرى:

جدير أن نشير أن محقّق الديوان قد استدرك شيئا من شعر ابن خاتمة في مدح الوزير لسان الدين ابن الخطيب لم يثْبته الشاعر في ديوانه الذي جمعه ورتبه بنفسه، ومما قال:

أقولُ وعَيْنُ الدَّمع نصْبُ عُيونِنا ولاحَ لِبُستانِ الوزارةِ جانِبُ
أهذي سَماءٌ أمْ بِناءٌ سَما بهِ كواكبُ غضَّتْ عن سَناها الكواكبُ[54]

المنارة للاستشارات

أما قسم المديح فلم يتضمن مدح أي شخصية بعينها، لا من وزراء بني الأحمر وأمرائهم ولا من غيرهم. ولعل أولى التفسيرات التي يمكن أن نسوقها مستمد من شخصية ابن خاتمة نفسه، إذ بدا من خلال سيرته أنه لم يكن يطلب رياسة ولا حظوة سياسية ولا عطاءً ماديا، فأعرض عن مدح الأمراء الذي عادة ما يأخذ لبوس التملق والطمع والحظوة والتكسب، ولم يعرف عنه – من خلال سيرته – أي طموح في هذا الجانب حتى إنه نادرا ما يغادر مدينة (ألمرية).

وربما كان تكوينه الديني، البارز في شعره، ذا أثر في ذلك، فعدل عن مدح الملوك إلى مدح ملك الملوك جل شأنه، وعدل عن مدح البشر إلى مدح خير البشر محمد علية الصلاة والسلام، وكان ميله إلى التصوف والعلم بأحوال المتصوفة عاملا إضافيا ليسمو بمدحه إلى أعلى مراتب الطهر؛ محبة الله والثناء عليه وشكر نعمه.

غير أن هناك تفسيرا محتملا آخر لا ينبغي أن نغفله، وهو يتعلق بطبيعة الأحوال السياسية في تلك الحقبة، وما آلت إليه الأندلس، فمملكة غرناطة هي آخر أرض لا يزال المسلمون يحافظون عليها آنذاك، ورغم الهدوء النسبي، إلا أن التهديدات موجودة وتحفّ بأهلها، والخطر محدق، فكأن بالشاعر يهرب من واقعه في مدحه – بل وفي شعره كله – فلا نكاد نجد أثرا في ديوانه يمت بصلة إلى عصر الشاعر إلا ما جاء عرضا وقليل ما هو.

خاتمة:

اختلفت قصيدة المديح عند ابن خاتمة مقارنة بمدائح شعراء عصره، فإنهم قد نظموا شعرا في مدح الأمراء والخلفاء والسلاطين، وخصصوا جزءا من شعرهم للمديح النبوي مثلما فعل لسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك وغيرهما، بيد أن ابن خاتمة كتب ديوانه بنفسه وقسمه بحسب الأغراض ولم يورد فيه شيئا من مدح الأمراء وأهل الحكم، وجاءت جميع قصائد قسم المديح في الثناء على الله وشكره، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

شكلت الطبيعة الأندلسية التي افتتن بها الشعراء حتى صارت حاضرة في أكثر أغراض الشعر، فضاء مهما في شعر المديح عند ابن خاتمة، فقد اتخذ – في الثناء على الله سبحانه– من جِسر التفكّر في آياته وبدائع صنعه في الأندلس طريقةً للتعبير عن الحمد والشكر، فرأينا

المنارة للاستشارات

كيف أنّ شعر الطبيعة قام بدور أساسي في جلّ قصائد هذا القسم، إذ انطلق من خلال هذا الشعر واعظا بآيات الكون وبدائع صنع الخالق، والسياحة في ملكوت الله.

وأما مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد تعانقت فيه قيم الحب والإيمان لتشكّل عوالم الطهر والسمو الروحي، لا يضجرك فيه تطويل ولا يسئمك تفصيل، وتميزت بعاطفة صادقة، فمدحه هنا لا تملّق فيه ولا تكلّف، وقد استعان الشاعر بوصف الرحلة ومشقاتها ومصاعبها، ليبين مدى تصبره وجلده من أجل زيارة المدينة المنورة، وهي من واحدة من عناصر المديح النبوي الشائعة في الأندلس.

بدا الشاعر بصيرا بأحوال الصوفية ورموزها ولغة انفعالاتها، من خلال توظيف خطاب صوفي تميّز بالوجدانية الرقيقة المشرقة، وفّرت أجواءً ذات توتر عاطفي عالٍ بغية التجاوب مع الغرض الأصلي وهو الثناء، الذي وفّر له فضاءً من نوع آخر تمثل في شعر المناجاة والدعاء وقد حاز على مساحة لافتة. وتأثر ابن خاتمة بشعراء متصوفة فعارض بعض قصائدهم، وخمّس بعضها، في تجربة تشي بانصهار الرؤية الصوفية الواحدة وإن تعددت مظاهرها ونصوصها.

أبرزَ الثناءُ والشوقُ من جهة، والمناجاة والدعاء من جهة أخرى المداراتِ الأساسيةَ في مدائح ابن خاتمة المتمثلة في: الحبّ والخشية، والخوف والرجاء، وخلع الشاعر على بعض قصائده كاملة لباسَ الدعاء إلى الله والابتهال إليه. لقد تعددت سبل الشاعر ودروبه للوصول إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه من تأثير على المتلقي، فتنوعت عنده أشكال التأثير، مستعينا بالطبيعة الأندلسية حينا، وبالرؤية الصوفية حينا آخر، وبمجاراة بعض أدبيات صناعة المديح النبوي التي تبلورت في الشعر الأندلسي.

وأما سبب عدوله عن المدح بصيغته المعروفة، فلأنه لم يكن طالب حظوة أو رياسة بالإضافة إلى ميله إلى التصوّف وشيء من الزهد، والسبب الآخر الذي يفرض نفسه هو عدوله التام عن واقعه زمانا ومكانا، فلا أثر في هذا القسم، ولا حتى في باقي شعره ما يدل على عصره؛ عصر بني الأحمر، ولا موطنه مدينة (ألمرية)، ويبدو أن سبب ذلك هو الحال المتردية التي آلت إليها بلاد الأندلس، وانحصارها في رقعة مملكة غرناطة المهددة في كل حين. فكأن بالشاعر في شعره يتعالى على واقعه.

المنارة للاستشارات

الهوامش والإحالات

(1)– ابن رشيق المسيلي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ج2، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، لبنان، 2001، ص 148.

(2)– حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1981، ص 251.

(3)– محمد النويهي: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ج2، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص 617.

(4)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(5)– عيسى علي العاكوب:التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر المعاصر، لبنان، ودار الفكر سوريا، ط1، 2000، ص 53.

(6)– انظر تاج الدين عبد الوهاب بن علي: طبقات الشافعية الكبرى، ج1، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناجي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، مصر، ط1، 1964م، ص 188.

(7)– ابن رشيق: العمدة، ج1، ص 87– 88.

(8)– جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1980، ص 114.

(9)– عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1972، ص 185.

(*)– هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، من أهل (ألمرية) كنيته أبو جعفر، ويعرف بابن خاتمة، عاش إبان مملكة بني الأحمر. لم يعرف تاريخ محدد لولادته وتوفي عام 770 هـ. اشتهر في عصره بالشعر والترسل، والفقه والزهد، والتأليف، تتلمذ على عدد من الشيوخ، أخذ عنهم العلم وأجازوه، ليؤهله تحصيله هذا لأن يعقد للإقراء في مسجد مدينة (ألمرية)، ويتتلمذ عليه عدد من طلاب العلم، ولمكانته بين قومه، فقد كان يقوم بعقد الشروط، ويكتب عن الولاة ببلده وكان يستدعي إلى غرناطة في المحافل الخاصة من قبل قصر الحمراء. وقد جمعته علاقة صداقة وطيدة بلسان الدين بن الخطيب، يدل على ذلك الرسائل– المثبتة في كتاب الإحاطة– التي دارت بينهما وبعض الأشعار. أثنى عليه معاصره وصاحبه الوزير لسان الدين بن الخطيب فقال: «هذا الرجل صدر يشار إليه، طالب متفنن مشارك، قوي الإدراك، سديد النظر قوي الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، معين الطبع، جيد القريحة، بارع الخط، ممتع المجالسة، حسن الخلق، جميل العشرة، حسنة من

المنارة للاستشارات

حسنات الأندلس وطبقة من النظم والنثر». للتوسع: انظر لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ط2، 1973، ص 239 وما بعدها.

(10)– سورة آل عمران: الآيتان: 190–191.

(11)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية ط1، 1994، ص 29– 30.

(12)– سورة المؤمنون: الآية 115.

(13)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 29 – 30.

(14)– المصدر نفسه: ص 41 وما بعدها.

(15)– جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص 133.

(16)– سورة الدخان: الآية 38.

(17)– سورة ص: الآية 27.

(18)– ابن القيم الجوزية: الفوائد، تخريج أحمد راتب عرموش، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص16

(19)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 45.

(20)– سورة الحج: الآية 18.

(**)– وردت مقطوعتان في مدح لسان الدين بن الخطيب في الديوان، ولكن في الجزء الذي استدركه المحقق على صاحب الديوان، إذ لم يثبتهما الشاعر في قسم المديح.

(21)– ابن القيم: الفوائد، ص 202 .

(22)– الديوان: ص 34.

(23)– مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 38.

(24)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 37.

(25)– المصدر نفسه: ص 37.

(26)– عماد الدين خليل: في النقد التطبيقي، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1996، ص74 .

(27)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص37.

(28)– زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، ط1، صيدا بيروت، ص:17.

المنارة للاستشارات

(29)– المصدر نفسه: ص، 34.

(30)– رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم وقال حديث صحيح.

(31)– عيسى العاكوب: التفكير النقدي عند العرب، ص 44 .

(32)– مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط9، 1997، ص 68

(33)– عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط2 1976، ص 225– 226 .

(34)– انظر: مصطفة الشكعة: الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه، ص 65 وما بعدها.

(35)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 48.

(36)– عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص72.

(37)– المرجع نفسه: ص73 .

(38)– اعتمدنا في شرح مصطلحات الصوفية ورموزها على الرسالة القشيرية، ص51 وما بعدها.

(39)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 48 .

(40)– عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص228 .

(41)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص33.

(42)– عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 222.

(43)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص37.

(44)– الرسالة القشيرية: ص 88.

(***)– شهاب الدين محمد بن عبد المنعم الأنصاري بن الخيمي، توفي سنة 685 بالقاهرة .شاعر يماني الاصل، مولده ووفاته بمصر. كان مقدما على شعراء عصره– انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج 6، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت، 2002، ص250.

(45)– طالع القصيدة كاملة في الديوان ص 50 – 54 .

(46)– وفيق سليطين: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والاتحاد، مجلة فصول، المجلد 14 العدد الثاني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1995، ص 166.

(47)– طالع القصيدة كاملة في الديوان، ص 39 وما بعدها.

المنارة للاستشارات

(****)– أبو مدين شعيب الأندلسي التلمساني، من مشاهير المتصوفة في القرن السادس، أقام بالأندلس ثم فاس، ثم استوطن بجاية، قيل أنه كان زاهدا فاضلا عارفا بالله، وأحد أعلام العلماء وحفّاظ الحديث، توجه إلى الحجاز واتصل بشيخ الصوفية عبد القادر الكيلاني نُسبت إليه كرامات كثيرة وقيل عنه: أحد أعاظم الطريق المجمع على جلالتهم وولايتهم الكبرى، (ت594هـ) بتلمسان، وضريحه مشهور هناك (انظر: نفح الطيب، ج7، ص136 وما بعدها والنبهاني: جامع كرامات الأولياء ج2، ص 112 وما بعدها، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، 2002).

(48)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص39.

(49)– المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(50)– ابن القيم: الفوائد: ص 34.

(51)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 35.

(52)– طالع القصيدة كاملة في الديوان، ص 39.

(53)– ابن القيم: الفوائد، ص 168.

(54)– ابن خاتمة الأنصاري: الديوان، ص 202.

المنارة للاستشارات